مدوّنة تُعنى بنشر الكتابات التخصصيّة لبراعة الحوزة العلميّة الشريفة

فقه الشعائر الحسينية

لسان الحال

بقلم

سماحة السَّيد محمود الموسوي

تمهيد

من الجدليات المثارة في إحياء الشعائر الحسينية هي استخدام ما يُسمى بلسان الحال في حكاية (السيرة) وفي إثارة العاطفة، من خلال التوسّع في حكاية الأحداث واستنطاقها إلى درجة استحداث أحداث لم تقع، أو تخيّل محاورات لم تحدث. ولعل الجدل هو في الأساس بين أن يكون لسان الحال منحى فنّي من أجل استثارة العاطفة، وبين أن يكون أشبه بسيرة تاريخية مضافة إلى التاريخ، فبين هذا وذاك، بين الإبراز الجمالي المؤثّر وبين الاختلاق التاريخي المؤثر، كانت قصة الجدل ومناحي التداول.

تعريف لسان الحال:

إنّ لسان الحال هو ما يقابل (لسان المقال)، وقد جاء في أقرب الموارد في تعريفه: ما دلّ على حالة الشيء أو كيفيّته من ظواهر أمره، فكأنّه قام مقام كلام يعبَّر به عن حاله فلم يفتقر معه إلى كلامٍ، يقولون: نطقت لسان الحال بكذا[1].

وعرّفه بعضهم: لسان الحال هو كلّ ما يبيّن وضع شخص أو حالته أو بعض شؤونه... فكلّ ما ينسب إليه ممّا لم يقله وقد وصفه به الشاعر أو الكاتب عن أحواله بحيث إنّه لو أراد أن يقول شيئاً لعبّر بحسب حاله بما نسب إليه[2].

إن لسان الحال في مفهومه العام يُستعمل في اللغة بصور متعددة، ومن ذلك استعمال علماء الأخلاق له لبيان ضرورة الانسجام بين قول الإنسان وفعله، وبين ظاهره وباطنه، فيقال: لابد أن

---

[1] - كتاب نهضة عاشوراء، تأثير لسان الحال في بيان واقعة كربلاء، ص ٧٣. نقلاً عن أقرب الموارد، سعيد خوري، ج٢، ص١١٤٢.
[2] -المصدر، عن لغت نامة دهخدا، ج٨، ص١٢٦٤٤.

يوافق لسان حالُ الإنسان لسانَ مقاله، لأن واقع الإنسان الذي يعيش الانفصام بين الحالين، يوشي من خلال سلوكه وأفعاله بخلاف ما يدّعيه، ولذلك قال تعالى: {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ. كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ**}[٣]، فقد يدّعي الإنسان شيئاً بلسان مقاله، إلا أن واقعه ولسان حاله على النقيض من ذلك، كما في قول الله عزّ وجلّ: {**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ. أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ**}[٤]، ومن هنا فإن لسان الحال هو تعريض أو وصف لما عليه الإنسان حقيقة، أو ما يمكن أن يُكتشف من السلوك، وهذا ما يعنيه ما ورد عن أمير المؤمنين (عليه السلام): "لسان الحال أصدق من لسان المقال"[٥].

وكما قال الشاعر: كاد المتيم أن يكتم سره لولا ينم به لسان الحال[٦].

وفي الأدب العربي استعمل الحكاية بلسان الحال كثيراً خصوصاً في الشعر، بل قد يكون لسان الحال من المقوّمات الفنية الأساسية في البيان البليغ، فيقوم الشاعر باستنطاق الحال فيصيغ منه كلمات أدبية معبّرة، مثل قول الشاعر حكاية عن فاطمة الزهراء (عليها السلام) في تعداد مصائبها بعد شهادة أبيها (صلى الله عليه وآله)، حيث استعان بالحال الواقعي وسبكه في موقف واحد، حيث قال:

وَرَنَتْ إِلَى الْقَبْرِ الشَّرِيفِ بِمُقْلَةٍ عَبْرَى وَقَلْبٍ مُكْمَدٍ مَحْزُونِ

---

[٣] - سورة الصف ٢ - ٣

[٤] - سورة البقرة ١١ - ١٢

[٥] - موسوعة أحاديث أهل البيت (ع)، ج ١٠، الشيخ هادي النجفي، ص ٤٩.

[٦] - ديوان الأزري الكبير، الشيخ كاظم الأزري التميمي، ص ٤٨٦.

نَادَتْ وأَظْفَارُ الْمُصَابِ بِقَلبِها أَبَتَّاهُ عَزَّ عَلَى الْعِدَاةِ مُعِينِي

أبَتاهُ هَذَا السَّامِرِيُّ وعِجْلُهُ تُبِعَا وَمَالَ النَّاسُ عَنْ هارُونِ

أَيَّ الرَّزَايَا أَتَقِيّ بِتَجَلُّدٍ هُوَ فِي النّوَائبِ مُذْ حَيَّيْتُ قَرِينِي

فَقْدِي أَبِي أَمْ غَصْبَ بَعْلِي حَقَّهُ أَمْ كَسْرَ ضِلْعِي أَمْ سُقُوطَ جُنَيْنِيْ

أَمْ أَخَذَهُمْ إِرْثِي وفَاضِلَ نِحْلَتِي أَمْ جَهْلَهُمْ حَقِّي وَقَدْ عَرَفُونِي

قَهَرُوا يَتِيمِيكَ الحُسَيْنَ وصِنْوَهُ وَسَأَلْتُهُمْ حَقِّي وَقَدْ نَهَرُونِي[٧]

لسان الحال في الشعائر الحسينية:

أما لسان الحال في التعبير عن السيرة والمواقف التاريخية، فإنه يعبّر عن المعاني التي لم يذكرها لسان المقال، وتكون متوافقة مع ما ينبغي أن يكون، وقد تجسّدت مثل هذه المعاني في (الشعر) بشكل أوسع من غيره، وبنحو ما في صياغة (القصص) المعبّرة عن لسان الحال، والسيرة الحسينية باعتبارها موضوعاً حيوياً، وذكرى متجددة يسعى الخطباء والأدباء إلى إحيائها في النفوس والمحافظة على جذوتها في الاشتعال، أصبحت ميداناً خصباً لنمو التعبير بلسان الحال عنها وعن بطولاتها وعن مآسيها العظيمة.

الرافضون للسان الحال:

[٧] - الشاعر المرحوم الشيخ صالح الكوّاز.

نعرض في البدء بعض الآراء الرافضة للسان الحال مع ندرتهم، ومع ما في آرائهم من سعة لقبول بعض جهاته. ممن اعتبروا أن لسان الحال هو مدخل للتحريف من جهة، وهو تقوّل على النبي (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته (عليهم السلام) من جهة أخرى، هو السيد محمد الصدر في كتابه أضواء على ثورة الإمام الحسين (عليه السلام)، حيث توقّف عند محطات عدّة في مناقشة لسان الحال، ولعل مناقشته بناء على أقوال كانت سائدة حينها أو هي محتملات جاءت في البال، فقام بمناقشتها، وسنذكر أهمها على هيئة نقاط ملخّصة.

الأولى: عدم استطاعة الشاعر والناقل على العلم بحال المعصومين (عليهم السلام)، لأنهم أعلى وأجل من أن نعلم ما يدور في خواطرهم، وخصوصاً في تفاصيل شؤونهم.

الثانية: أن رواية (قولوا فينا ما شئتم) مبرر عند العض لنقل الكذب، وهو أمر مرفوض، فما شئتم تعني في المدائح والأوصاف الكمالية، فإن المادح لن يصل إلى حقيقة عظمتهم (عليهم السلام)[٨].

الثالثة: أن من مجوزات النقل بلسان الحال هو إطلاق روايات (من بكى وأبكى) فالإبكاء بلسان الحال بأي نحو جائز، وهو مع ضعف السند، لم يذكر متعلق البكاء فليس كل متعلق للبكاء مشروع.

الرابعة: إن الشعر أمر معهود في السيرة الحسينية، وفي الشعر الخيالات والمبالغات وهو أمر ممضى من الشارع، إلا أن ذلك لا يشمل الكذب، وأن الأمثلة التي قيلت عند أهل البيت (عليهم السلام) فليس لسكوتهم دلالة رضا، بل هو تعبير الشاعر عن مستواه في الإيمان وقد يكون مستواه ضعيف.

---

[٨] - ولم نجد من طرح هذا الأمر علمياً.

بالنظر لمناقشات السيد الصدر نجد أنه ناقش لسان الحال من جهة كونه مسوغاً للكذب والتدليس في الأعم الأغلب، وهو أمر سوف نقوم بعرضه فيما بعد، ولكن يبقى رفضه للسان الحال حتى مع مثال ما جاء به دعبل عند الإمام الرضا (عليه السلام) محل تأمل، كما أنه ذكر عبارة يفهم منها أنه يقبل بعض صور لسان الحال الذي يعتبر نقلاً مضموناً، حيث قال: (وهذا ليس خطأ كله، بل يحمل جانباً من الصواب من الناحية الفقهية، فإن النقل بالمعنى عن الروايات جائز إذا كانت الرواية بدورها محرزة الصحة)[٩].

ولقد أبدى الشيخ مرتضى المطهري آراءً نقدية للتعاطي مع لسان الحال، "وقسّم الشهيد المطهّريّ لسان الحال –بعد أن أشار إلى عوامل ظهور التحريفات ووظيفة علماء الدّين اتجاه ذلك - إلى قسمين، فاعتبر أحدهما صحيحاً ومنطقيّاً، بينما يشكو ممّا يُقال ويُكتب تحت عنوان لسان الحال ممّا هو منتشر في هذا الزمان ويعتبره غير سائغٍ ولا مشروع، وهذه عبارته :إنّ نظرةً عامّة إلى استعمالات لسان الحال في عصرنا هذا تكفي لنعرف مدى التحريفات التي نُسبت إلى كثير من الأشخاص. نعم البعض منها يعتبر مرآة صافية تعكس شخصيّة الإمام الحسين عليه السلام الحقيقية مثل أشعار إقبال اللّاهوريّ وبعض أشعار حجّة الإسلام التبريزيّ وإن كان البعض منها يحمل تحريفاً لتلك الشخصيّة مثل الأسى الذي يظهره الإمام عليه السلام لفقدان أمّه... وأمنيّته لو أنّ تراب كربلاء يمنحه أُمّاً...

إنّ لسان الحال هذا ليس فقط يتنافى مع شخصيّة الإمام (عليه السلام) العظيمة بل هو لا ينسجم مع مسلكيّة رجل عادي يبلغ من العمر سبعاً وخمسين عاماً بحيث يطلب في تلك الظروف أمّه

[٩] - أضواء على ثورة الإمام الحسين، ص٩٠.

لتضمّه إلى صدرها، والحال أنّ الأمر بالعكس من ذلك تماماً حيث إنّ الأمّ هي التي تلجأ إلى ولدها الذي يبلغ من العمر ذلك الحدّ.

نعم إنّ الإمام الحسين عليه السلام تحدّث عن أمّه ولكن بصورة ملحميّة تحمل الافتخار فقال: (أنا بن عليّ الطهر من آل هاشم... وفاطمة أمّي... يأبى الله ذلك لنا ورسوله وحجور طابت وطهرت ونفوس أبيّة وأنوف حميّة) إلى غير ذلك من الكلام[١٠].

والملاحظ من كلام المطهري أنه لا يرفض تمام ما يسمّى لسان الحال، وإنما الحساسية لديه من أن يساهم ذلك في تحريف الوقائع العاشورائية أو تحريف ما يفترض أن يكون عليه الإمام (عليه السلام) من واقع وقداسة، وهذا أمر عرضي يتوسع ويتضيق قبوله نسبة إلى الرؤية والاعتبارات التي يتبناها صاحب الرؤية، فمن يرى أن البكاء على الإمام الحسين (عليه السلام) مبالغ فيه، سيقف موقف الرفض من لسان الحال الذي يعزز هذه الحالة، والعكس كذلك.

وهناك رأي يتداوله بعض المؤلفين للشيخ عباس القمي، من أنه رافض للسان الحال تماماً، ويعتبره ضرباً من الكذب، ولكن يبدو أن هذا الفهم فيه نظر، وعبارته في ذلك مقتضبة، حيث قال في معرض توجيهه ونصحه للخطباء ضمن نقاط عدّة: على الخطيب أن: "يجتنب الكذب والافتراء على الله تعالى وعلى حججه وعلى العلماء، ولا يخلط الحديث ولا يدلّس ولا ينقل الكذب بعنوان لسان الحال"[١١]. ولا تبدو عبارته واضحة في مقام الرفض التام، لأنها جاءت في سياق عدم التدليس وعدم

---

[١٠] - كتاب النهضة الحسينية، ص٨٠، عن مجموعة آثار الشهيد المطهري، ج١٧، ص٦١٣.
[١١] - نفس المهموم في مصيبة سيدنا الحسين المظلوم الشيخ عباس القمي، ص ٦٢٠.

نقل الكذب عموماً ولو كان تحت عنوان لسان الحال، وسيأتي الكلام حول ضوابط لسان الحال وضرورة عدم الاعتماد على المكذوبات.

أدلة قبول لسان الحال

١- الاستدلال القرآني:

جاء الاستدلال القرآني على جواز حكاية لسان الحال بطرق عدّة، منها أن كلام ونطق المخلوقات غير الإنسان هو نطق بلسان الحال وليس لسان المقال الحقيقي، مثل: (جهنم، والسماء، أعضاء الإنسان، الجبال والطير، والذر)، بحسب القائلين بذلك، فهو دليل على شرعية لسان الحال وحكاية السيرة الحسينية وغيرها به.

يقول السيد ابن طاووس في إقبال الأعمال: "إن سأل سائل فقال: ما معنى الوداع لشهر رمضان وليس هو من الحيوان، الذي يخاطب أو يعقل ما يقال له باللسان؟

فاعلم أن عادة ذوي العقول قبل الرسول ومع الرسول وبعد الرسول، يخاطبون الديار والأوطان، والشباب وأوقات الصفا والأمان والاحسان ببيان المقال، وهو محادثة لها بلسان الحال. فلما جاء أدب الإسلام أمضى ما شهدت بجوازه من ذلك أحكام العقول والأفهام، ونطق به مقدس القرآن المجيد، فقال جل جلاله: (يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد). فأخبر أن جهنم رد الجواب بالمقال، وهو إشارة إلى لسان الحال، وذكر كثيرا في القرآن الشريف المجيد وفي كلام النبي

والأئمة صلوات الله عليه وعليهم السلام وكلام أهل التعريف، فلا يحتاج ذوو الألباب إلى الإطالة في الجواب"[١٢].

إلا أن هناك خلافاً في الاستدلال بالقرآن بهذا النحو، لأننا نفترض في القرآن والحديث الواقعية والحقيقية، {**إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ**}[١٣]، وإن كان هناك بعض القصص لا تعبر عن الحالة الحقيقية للشخص وإنما جاءت في سياق التعليم، كما فعل نبي الله إبراهيم في الإشارة للشمس والقمر كرب له، وغير ذلك، إلا أن هذه حادثة وقعت فعلاً، أي لا ينطبق عليها لسان الحال، وأنّ تكلّم السماء والنار وغيرها إنما هو كلام حق، ولكن لا نفقه تسبيحهم وكلامهم، إلا أن يأتي نص في ذلك، يصرف الدلالة عن المراد الجدي والحقيقي.

والسيد بن طاووس صاحب الرأي السالف له رأي مخالف لما دوّنه في كتاب الإقبال، ويرجع كلام الجمادات وتسبيحها إلى المعنى الحقيقي، ويرد على الطبرسي في تفسيره، بقوله في كتاب (سعد السعود): "وأما قوله عن الجبال والطير وتسبيحها- إشارة إلى رأي ذكره الطبرسي في تفسيره - فإني وقفت على كلام جماعة من علماء المتكلمين تنكر ذلك ويقولون أن معناه المراد به بلسان الحال وهذا الشيخ الطوسي كلامه يقتضى أنها كانت تسبح تسبيحاً حقيقة {خفياً}، واعلم أن الله جل جلاله قادر أن يجعل للجبال والطير تسبيحاً على التحقيق إذ هو قادر لذاته ولا معنى لإنكار ذلك عند أهل التحقيق، وظاهر لفظ المدح لداود بهذه الآيات وإفراده بها عن غيره من الأنبياء وذوي المقامات دلالة على أنها كانت تسبّح على الحقيقة كما يلزم أن الحصى سبح في كفّ سيدنا رسول الله (ص) على الحقيقة ولعل قد سمعنا من الطيور كالببغاء وغيرها كلاماً واضح البيان وما يجوز أن ننكر ما

---

[١٢] - إقبال الأعمال، ج ١، السيد ابن طاووس، ص ٤١٩

[١٣] - آل عمران، آية ٦٢.

قد شهد صريح القرآن، ولو كان المراد لسان الحال كان كل مسبح من العباد، فإن لسان حال الحمار يسبّح معه بهذا التفسير وما كان ينبغي لداود زيادة فضيلة في هذا المدح الكبير، ولو كان أيضاً المراد ان من رأى الجبال والطير يسبح الله وينزهه وتكون الإشارة إلى المسبحين حيث إن الجبال والطير سبب للتسبيح من المكلفين، وهذا تكلّف ممن قاله خارج من التأويل مع إمكان حمله على حقيقته وحيف على كلام المقدس الجليل"[١٤].

ومثال ذلك ما نقله العلامة المجلسي من رواية تبيّن كلام الإنسان وهو في عالم الذر، بأن الله تعالى خلق فيهم ما ينطقهم فنطقوا، وهي: "تفسير العياشي عَنْ أَبِي بَصِيرٍ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ (عليه السلام) كَيْفَ أَجَابُوا وهُمْ ذَرٌّ قَالَ جَعَلَ فِيهِمْ مَا إِذَا سَأَلَهُمْ أَجَابُوهُ يَعْنِي فِي الْمِيثَاقِ".

ثم علّق المجلسي ببيان متوافق مع الرواية الشارحة، وقال: أي تعلقت الأرواح بتلك الذر وجعل الله فيهم العقل وآلة السمع وآلة النطق حتى فهموا الخطاب وأجابوا وهم ذر.

إلا أن المعلّق وهو العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي لم يوافق هذا المعنى واعتبره من لسان الحال كأحد الاحتمالات، وقال: "ظاهر الرواية لسان الحال، أو أنهم كانوا على خلقة لو نزلوا منزل الدنيا ظهر ذلك منهم في صورة السؤال والجواب، وأمّا ما ذكره رحمه الله فبعيد عن سياق الخبر ولو صح لكان هو الخلق الدنيوى بعينه"[١٥].

---

[١٤] - سعد السعود، السيد ابن طاووس، ص ٨٨

[١٥] - بحار الأنوار، ج٥، ص٢٥٧.

ويقول السيد نعمة الله الجزائري في رفض أن يكون كلام الجمادات في القرآن من لسان الحال: "وأما قول العرش وكلامه، فالظاهر أنه بلسان المقال، كما ذهب إليه طائفة من أرباب الحديث، والأكثر على أنه وما ورد بمعناه راجع إلى لسان الحال، والأصوب هو الأول، ومن ثم نص جماعة من المحققين على أن المعجزة في تسبيح الحصى بكفه صلى الله عليه وآله إنما هو اسماع الخلق تسبيحها، وإلا فهي دائماً في التسبيح ولكن لا نفقه نحن ما يقوله من التسبيح"[١٦].

وهناك رأي آخر يجمع بين تسبح المخلوقات ونطقها بأنه بلسان الحال وبين أنه حقيقي، فيعتبر حسن نظامها وواقع حالها الذي يشهد لها بأنها تسبّح، هو أبلغ من المقال، وهو حقيقي لأنه كاشف عن الحال، كما إذا رأيت شخصاً شاحب الوجه غائر العينين فينكشف لك عدم نومه، وكما تشهد جودة الصناعات بتقنية الصانع وحسن الشعر ببراعة الشاعر[١٧].

يمكن أن يقال في الاستدلال بالقرآن على لسان الحال، أن بعض الآيات التي عبّرت عن المعنويات بالمحسوسات هي نوع من لسان الحال، مثل: (**بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ**)، فالمعنى حقيقي ولكن لعل التقريب حسي والتصوير الفني مادياً من أجل إفهام القارئ، وكما في الآيات التي تحدّثت عن مضامين أفعال الناس بواقع شبيه بالمقالي، مثل (**أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ**)، فهو تكذيب عملي ولكنه صوّره وكأنه ينطق بالتكذيب، أو في ضرب الأمثال، كقوله تعالى: (**فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ**)، وغير ذلك إذا توسّعنا في مفهوم لسان الحال وتفريعاته.

---

[١٦] - نور البراهين، ج ١، السيد نعمة الله الجزائري، ص ٧٢

[١٧] -انظر تفسير الأمثل لكتاب الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، ج٩، ص١٠.

والخلاصة أن الاستدلال بما جاء في القرآن من تكلّم الجمادات واعتباره من لسان الحال يعتمد على الرؤية الأساسية في تفسير تلك الآيات، وهو أمر مختلف فيه كما رأيت، إلا أن يقال أن فيه إشارات كنائية وتصويرية قريبة من لسان الحال.

٢- الاستدلال بالسنّة:

الاستدلال بالسنّة المطهرة يمكن ملاحظته من ثلاث جهات:

الجهة الأولى: فعل المعصوم إنشائه أو حكايته الشعر الذي يحتوي على لسان الحال.

يقول السيد محمد الشيرازي: "إن لسان الحال إذا تحقّق موضوعه لا بأس به، لأنه لا يعد من الكذب، ولذا روي عن علي (ع) أنه أنشأ على قبر الزهراء (ع):

قال الحبيب وكيف لي بجوابكم وأنا رهين جنادل وتراب

أكل التراب محاسني فنسيتكم وحجبت عن أهلي وعن أترابي

وفي شعر أنشده الإمام (ع) للمتوكّل منسوب إليه (ع):

فأفصح القبر عنهم حين سائلهم تلك الوجوه عليها الدود تنتقل.

وإن كان من المحتمل أن يكون تكلّم القبر حقيقة، كما في رواية أخرى: (أنا بيت الوحشة، أنا بيت الغربة – إلى آخره-"[١٨].

[١٨] - الفقه، كتاب المكاسب المحرمة، ج٢، ص٨٨.

الجهة الثانية: التقرير، وتقرير الإمام كما في الأصول حجة، وهو أن يقابل عملاً أو رأياً بالرضا والقبول، فهو إقرار من قبله مالم يمنعه مانع من تقية ونحوه.

وقد نقلت العديد من المصادر القصة الشهيرة للشاعر الشيعي المعروف دعبل الخزاعي الذي ألقى قصيدة عصماء في محضر الإمام الرضا (عليه السلام)، وهي تحتوي على صور متعددة، منها التصوير والتخيّل للسيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) عند حضورها في كربلاء بأسلوب لسان الحال.

عَنْ أَبِي الصَّلْتِ الْهَرَوِيِّ قَالَ دَخَلَ دِعْبِلُ بْنُ عَلِيٍّ الْخُزَاعِيُّ عَلَى الرِّضَا (عليه السلام) بِمَرْوَ فَقَالَ لَهُ يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ إِنِّي قَدْ قُلْتُ فِيكُمْ قَصِيدَةً وآلَيْتُ عَلَى نَفْسِي أَلَا أُنْشِدَهَا أَحَداً قَبْلَكَ فَقَالَ الرِّضَا (عليه السلام) هَاتِهَا يَا دِعْبِلُ فَأَنْشَد – قصيدة طويلة جاء فيها -:

أَفَاطِمُ لَوْ خِلْتِ الْحُسَيْنَ مُجَدَّلًا — وَقَدْ مَاتَ عَطْشَاناً بِشَطِّ فُرَاتِ

إِذاً لَلَطَمْتِ الْخَدَّ فَاطِمُ عِنْدَهُ — وَأَجْرَيْتِ دَمْعَ الْعَيْنِ فِي الْوَجَنَاتِ

أَ فَاطِمُ قُومِي يَا ابْنَةَ الْخَيْرِ فَانْدُبِي — نُجُومُ سَمَاوَاتٍ بِأَرْضِ فَلَاة[١٩]

ويبدو أن هذه القصيدة دقيقة في معنى لسان الحال المتداول بين شعراء عاشوراء، فالشاعر استحضر شخصية الزهراء (عليها السلام) في واقعة كربلاء بتعبيره ب (لو)، ثم أثبت لها تصويراً منه

[١٩] - كشف الغمة في معرفة الأئمة (ط - القديمة)، ج٢، ص: ٣١٨

فعلاً من الأفعال وهو (اللطم على الخد) وجريان الدموع، بل أنه قام باستنهاضها للندبة بقوله (أفاطم قومي)، وهي معان جدير بالمدقق أن يلاحظها لما فيها من نكات يمكن أن تعزّز جوانب عديدة في لسان الحال.

الجهة الثالثة: الإمضاء للشعر بعمومه مع ما فيه من لسان الحال بكثرة كثيرة.

يقول السيد بن طاووس في تقريب هذا المعنى: "فاعلم أن عادة ذوي العقول قبل الرسول ومع الرسول وبعد الرسول، يخاطبون الديار والأوطان، والشباب وأوقات الصفا والأمان والاحسان ببيان المقال، وهو محادثة لها بلسان الحال. فلما جاء أدب الإسلام أمضى ما شهدت بجوازه من ذلك أحكام العقول والأفهام"[٢٠].

وقد تعامل النبي (صلى الله عليه وآله) وأهل البيت (عليهم السلام) مع الشعراء، بل شجعوا على هذا المسار، مع بيانهم لأحكام لابد من توخيها فيه، مثل حرمة التشبيب في الشعر ومثل حرمة الاستهزاء بالمؤمن، والكذب، وهذا التوجيه والاستثناء يؤكد الإمضاء من قبل الشارع لفنون الشعر، مضافاً إلى أنه جرت عادة الشعراء في الإنشاد والتصويرات بلسان الحال، ولم يرد منع عن ذلك.

ويضاف إلى ذلك توجيه أهل البيت (عليهم السلام) لقول الشعر في الإمام الحسين (عليه السلام) وفي مصيبته، واستحقاق الثواب الجزيل عليه، ومن تلك الروايات ما رواه ابن قولويه في كامل الزيارات:

---

[٢٠] - إقبال الأعمال، ج ١، السيد ابن طاووس، ص ٤١٩

١-عَنْ أَبِي هَارُونَ الْمَكْفُوفِ قَالَ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ (عليه السلام) يَا أَبَا هَارُونَ أَنْشِدْنِي فِي الْحُسَيْنِ (عليه السلام) قَالَ فَأَنْشَدْتُهُ فَبَكَى فَقَالَ أَنْشِدْنِي كَمَا تُنْشِدُونَ يَعْنِي بِالرَّقَّةِ قَالَ فَأَنْشَدْتُهُ:

امْرُرْ عَلَى جَدَثِ الْحُسَيْنِ فَقُلْ لِأَعْظُمِهِ الزَّكِيَّةِ

قَالَ فَبَكَى ثُمَّ قَالَ زِدْنِي قَالَ فَأَنْشَدْتُهُ الْقَصِيدَةَ الْأُخْرَى قَالَ فَبَكَى وَسَمِعْتُ الْبُكَاءَ مِنْ خَلْفِ السِّتْرِ، قَالَ فَلَمَّا فَرَغْتُ قَالَ لِي يَا بَا هَارُونَ مَنْ أَنْشَدَ فِي الْحُسَيْنِ (عليه السلام) شِعْراً فَبَكَى وأَبْكَى عَشْراً كُتِبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ ومَنْ أَنْشَدَ فِي الْحُسَيْنِ شِعْراً فَبَكَى وأَبْكَى خَمْسَةً كُتِبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ ومَنْ أَنْشَدَ فِي الْحُسَيْنِ شِعْراً فَبَكَى وأَبْكَى وَاحِداً كُتِبَتْ لَهُمَا الْجَنَّةُ ومَنْ ذُكِرَ الْحُسَيْنُ (عليه السلام) عِنْدَهُ فَخَرَجَ مِنْ عَيْنِهِ [عَيْنَيْهِ] مِنَ الدُّمُوعِ مِقْدَارُ جَنَاحِ ذُبَابٍ كَانَ ثَوَابُهُ عَلَى اللَّهِ ولَمْ يَرْضَ لَهُ بِدُونِ الْجَنَّةِ.

٢-عَنْ أَبِي عُمَارَةَ الْمُنْشِدِ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ (عليه السلام) قَالَ: قَالَ لِي يَا بَا عُمَارَةَ أَنْشِدْنِي فِي الْحُسَيْنِ (عليه السلام) قَالَ فَأَنْشَدْتُهُ فَبَكَى ثُمَّ أَنْشَدْتُهُ فَبَكَى ثُمَّ أَنْشَدْتُهُ فَبَكَى قَالَ فَوَ اللَّهِ مَا زِلْتُ أُنْشِدُهُ ويَبْكِي حَتَّى سَمِعْتُ الْبُكَاءَ مِنَ الدَّارِ فَقَالَ لِي يَا أَبَا عُمَارَةَ مَنْ أَنْشَدَ فِي الْحُسَيْنِ (عليه السلام) شِعْراً فَأَبْكَى خَمْسِينَ فَلَهُ الْجَنَّةُ ومَنْ أَنْشَدَ فِي الْحُسَيْنِ شِعْراً فَأَبْكَى أَرْبَعِينَ فَلَهُ الْجَنَّةُ ومَنْ أَنْشَدَ فِي الْحُسَيْنِ شِعْراً فَأَبْكَى ثَلَاثِينَ فَلَهُ الْجَنَّةُ ومَنْ أَنْشَدَ فِي الْحُسَيْنِ شِعْراً فَأَبْكَى عِشْرِينَ فَلَهُ الْجَنَّةُ ومَنْ أَنْشَدَ فِي الْحُسَيْنِ شِعْراً فَأَبْكَى عَشَرَةً فَلَهُ الْجَنَّةُ ومَنْ أَنْشَدَ فِي الْحُسَيْنِ (عليه السلام) شِعْراً فَأَبْكَى وَاحِداً فَلَهُ الْجَنَّةُ ومَنْ أَنْشَدَ فِي الْحُسَيْنِ (عليه السلام) شِعْراً فَبَكَى فَلَهُ الْجَنَّةُ ومَنْ أَنْشَدَ فِي الْحُسَيْنِ شِعْراً فَتَبَاكَى فَلَهُ الْجَنَّةُ.

٣-عَنِ ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَّانَ عَنِ [ابْنِ] أَبِي شُعْبَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ غَالِبٍ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ (عليه السلام) فَأَنْشَدْتُهُ مَرْثِيَةَ الْحُسَيْنِ (عليه السلام) فَلَمَّا انْتَهَيْتُ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ-

لَبَلِيَّةٌ تَسْقُوا حُسَيْناً بِمِسْقَاةِ الثَّرَى غَيْرُ التُّرَابِ

فَصَاحَتْ بَاكِيَةٌ مِنْ وَرَاءِ السِّتْرِ وَا أَبَتَاهْ.

ضرورة التصوير الفني:

ومن ذلك دأب الفقهاء اعتماد لسان الحال، بل والتشجيع عليه في بعض الأحيان، لخدمته للقضية الحسينية، يقول السيد محمد تقي المدرسي:

"الفن التصويري في إثارة المشاعر ضروري لتجسيد حادثة تاريخية بعيدة، أمام الناس. وهذا شائع عند الخطباء والأدباء والشعراء، وحتى المؤرخين حينما يعبّرون عن حادثة – فإنهم - يعبّرون عن تلك الحادثة بطريقتهم ولا بد أن تدخل عوامل ذاتية في صياغة الحادثة. إذا أردنا – مثلاً – أن نقول: أن الإمام الحسين (عليه السلام) مشى إلى جثمان أخيه العباس، - نجد – التاريخ يذكر أن الحسين (عليه السلام) مشى ووقف على جثمان أخيه العباس ويسكت، التاريخ لا يصف هذه المشية، لكن لا ريب أننا عندما تصوّر علاقة الإمام الحسين (عليه السلام) بأخيه العباس ونتصوّر جو المعركة، ونتصوّر الأطفال الذين كانوا عطاشا، لا بد أن نرسم صورة الحسين(عليه السلام) وهو ينطلق إلى أخيه بطريقة تبدو قريبة إلى الواقع الذي كان هناك، رغم أن المؤرخ لا يذكر ذلك الواقع".

وكتطبيق للمثال الذي ذكره السيد المدرّسي نجده بارزاً في قصيدة السيد جعفر الحلي وهو يصف مشية الإمام الحسين (ع) نحو مصرع العباس (عليه السلام) وما فيه من معاني مفعمة بلسان الحال، في قوله:

ومشى لمصرعه الحسين وطرفه بين الخيام وبينه متقسم

ألفاه محجوب الجمال كأنه بدر بمنحطم الوشيج ملثم

فأكب منحنياً عليه ودمعه صبغ البسيط كأنما هو عندم

ينادي وقد ملأ البوادي صيحة صم الصخور لهولها تتألم

أأخي من يحمي بنات محمد صرن يسترحمن من لا يرحم

هونت يا ابن علي مصارع فتيتي والجرح يسكنه الذي هو ألم[٢١]

أنواع لسان الحال:

يمكن للباحث أن يفصّل في ماهية لسان الحال وأنواعه من خلال بعض الإشارات، ونذكرها هنا كإشارات عابرة:

١- لسان الحال الفطري البسيط، المقتضي لظاهر الموقف بحسب الطبيعة الفطرية للإنسان.

[٢١] - منتهى الآمال، الشيخ عباس القمي، ج١، ص٨١٤.

٢- لسان الحال الشأني، المقتضي لبيان محاورات تختص بشأنية وأفق تفكير الشّخص النوعي، كالمعصومين وأمثالهم.

٣- لسان الحال التعليمي والتفهيمي، أي سوق البيان من موقف ظاهري إلى ذكر ملازمات أو أي نوع من أنواع الربط للإفادة والتثقيف.

٤- لسان الحال التأويلي، وهو في الحقيقة كشرح للحال والموقف لا بحسب ظاهره، بل بحسب الرؤية التأويلية للحاكي، وقد تعتمد على مقدّمات معرفية قد لا تكون قريبة بحسب الظاهر، وتكون قريبة بحسب التفسير والتأويل بحسب المنهج المتبع.

٥- لسان الحال الاستنطاقي، لخلق ما يشبه مسرحاً يحتوي على محاورات مع الشخوص أو الجمادات وغيرها، لشرح الموقف أو بيان جوانب خفية منه.

الضوابط والمحاذير الشرعية:

لأن لسان الحال هو عمل أدبي فني مرتبط بالسيرة الحسينية، وهو في الوقت ذاته ليس من السيرة الواقعية التي يتخذها المؤمنون نبراساً لهم في حياتهم، بما في ذلك المواقف والأقوال التي نُسبت إلى الإمام المعصوم (عليه السلام)، أو من هو تالي تلوه من الشخصيات العظيمة التي نالت درجة من العصمة والعلم اللّدني وتسامت في نفوسهم وعقولهم إلى درجة أن تكون أفعالهم ذات اعتبار شرعي في مقام الاقتداء، فبسبب ذلك التباين الواضح بين لسان الحال وبين السيرة الحقيقية، فلابد من التنبّه إلى ضوابط وموازين تمنع من حصول اللبس بين الأمرين.

ووضع الضوابط هو من أجل دفع عملية الأعمال الأدبية بصورة لسان الحال، لا رفضها من رأس، ووقوع الاشتباهات وتداخل بعض الأعمال الفنية بلسان الحال مع السيرة الحسينية، لا يبرر موقف الرفض التام، بل يدعونا لوضع الضوابط من أجل الفرز بين الأمرين والحفاظ على مساهمة لسان الحال في الحماسة والتفاعل الإيجابي مع السيرة الحسينية المباركة.

ولقد حصلت بعض الالتباسات في هذا الشأن، وما زالت هناك قراءات عديدة لبعض ما ورد في كتب المقاتل من أنه قد يكون من أعمال لسان الحال، فدخلت شيئاً فشيئاً في تلك الكتب، واعتقد أصحابها بأنها من السيرة المروية، ونحن بدورنا نذكر مثالاً واحداً يخبرنا عنه آية الله الكلباسي في دائرة المعارف الحسينية، وهو مثال شعري نقل عن لسان الحال وقد تناقل بين الخطباء بل والمؤلفين على أنه من المروي كلسان المقال نسب إلى الإمام الحسين (عليه السلام)، وننقل هنا كلامه، يقول:

(من البلاغة أن يتقمص الشاعر شخصية أخرى فينظم عن تلك الشخصية بما يتناسب مع قضيته وما يختلج به صدره. وهذا ما يسمى بلسان الحال فإن كانت قدرة الشاعر فائقة تمكن من ذلك بشكل بديع مما يقطع معه السامع بأنه من نظم تلك الشخصية، هذا فيما إذا حذفت القرائن والأدوات الدالة على أنه من لسان الحال ولعل في الشعر المنسوب إلى الإمام الحسين عليه السلام ما نظم على لسان الحال فدرج رويداً رويداً حتى نسب إليه، من ذلك، البيت المشهور من الكامل:

إن كان دين محمد لم يستقم إلا بقتلي يا سيوف خذوني[٢٢]

[٢٢] - راجع ديوان القرن الثالث عشر الهجري من هذه الموسوعة - حرف النون -، شعراء من كربلاء: ١/ ١٧٤.

والذي هو من نظم الشاعر محسن أبو الحب الكبير[٢٣]، إلا أنه شاع عبر الخطباء والمنشدين بأنه للإمام الحسين عليه السلام حيث كان الخطباء ينشدونه من على المنابر بالمناسبة وفي يوم العاشر بالذات دون أن يذكروا اسم الشاعر أو ما يدل على أنه ليس للإمام كالقول مثلاً: «وكأنه قال» ولعلهم في البداية ذكروا ما يدل ثم غاب على السامع، فتلقفه وكأنه من نظم الإمام عليه السلام، ولقد وجدت في الكثير من المؤلفات التي صدرت في العراق ومصر ولبنان بل وفي غيرها منسوباً إلى الإمام الحسين عليه السلام مباشرة، والألطف من ذلك ان خطيباً نقل لي أنه عندما كان يتلقى العلم في قم المقدسة وجد مدرس العرفان يشرح لتلامذته مسألة عرفانية وقد استشهد بهذا البيت باعتباره صادراً عن الإمام الحسين عليه السلام قائلاً: بأن السيوف لم تكن لتؤثر في الإمام إلا بعد ما قال الإمام «فيا سيوف خذوني» حيث أذن لها بأن تقطع جسمه، يقول الخطيب فقلت له: «مولانا ثبت العرش ثم انقش» فاستغرب من ذلك وأخذ يؤكد أنه من شعر الإمام وكلامه)[٢٤].

ولنعرض بعض الآراء الفقهية المعاصرة في لسان الحال وبعض ما ذكر من ضوابط شرعية.

يُسأل السيد الخوئي في صراط النجاة السؤال التالي:

١٣٩٦: بعض القصائد التي تذكر في مصيبة سيد الشهداء عليه السلام تنسب للإمام الحسين عليه السلام أو لزينب عليها السلام أو للإمام السجاد عليه السلام، دون الإشارة إلى أن هذه الأبيات عن لسان حالهم، نعم بعض الناس يعرف كون ذلك عن لسان الحال، وبعضهم الآخر لا يعرف ذلك، فما هو الحكم؟

---

[٢٣] - محسن أبو الحب الكبير: لقب بالكبير في قبال حفيده محسن أبو الحب الصغير بن محمد حسن بن محسن أبو الحب الكبير بن محمد الحويزي الحائري (١٢٤٥ ـ ١٣٠٥ هـ) كان شاعراً فحلاً وخطيباً مفوهاً، له ديوان شعر مخطوط.

[٢٤] - دائرة المعارف الحسينية، ديوان الإمام الحسين، ص٧٧.

ويجيب: لا بأس ما لم يقصد واقع النسبة إليهم[٢٥].

والشيخ لطف الله الصافي حول سؤال: هل يجوز للخطيب الحسيني أن يقول كلاماً عن لسان حال المعصوم؟

كان جوابه: إن كان موافقاً للحال، وصرّح بأنه لسان الحال فلا بأس به[٢٦].

والسيّد السيستاني الذي سُئل: "هل يجوز التكلّم بلسان المعصومين عليهم السلام بالقصائد الحسينية؛ بحيث الكاتب يطلق عِنان خياله في تصوير الأحداث، واختلاق الكلام والمواقف؟ وهل يجوز تداولها بين المؤمنين؟

يجيب بنوع من التفصيل قائلاً: "بسمه تعالى: إنّما يجوز التكلّم بلسان حال المعصومين، فيما يُعتبر تمثيلاً صادقاً لأحوالهم . وفق المعايير الأدبيّة المتعارفة في أمثال ذلك . من دون إساءة إلى مقامهم الشريف؛ ومن ثَمّ يجب على المتكلّم بلسان الحال من الاطلاع على الحوادث التأريخية، واستنطاق أحوالهم من خلالها؛ لتجسيدها بصورة أدبيّة مناسبة، بعيداً عمّا يُعتبر من قَبيل المبالغة والاختلاق، والكذب بالمقياس الأوَّلي، كما أنّ جواز تداولها يخضع للمقاييس التي أشرنا إليها"[٢٧].

والشيخ الفياض: "لا إشكال فيه مادام كذلك"، والسيد محمد سعيد الحكيم: "بعنوان لسان الحال لا مانع منه"، والسيد الروحاني: "مع التصريح بعدم صدور المطلب الخاص عن المعصوم وإنما يذكر من باب لسان الحال لا إشكال فيه"، والسيد صادق الشيرازي: "لسان الحال فيما لم

---

[٢٥] – صراط النجاة (تعليق الميرزا التبريزي)، ج ٢، السيد الخوئي، ص ٤٤٣

[٢٦] - الشعائر الحسينية، لطف الله الصافي، ص١٠٦.

[٢٧] - الموقع الرسمي.

يكن منافياً لمقامهم سلام الله عليهم يكون جائزاً"، والسيد محمد الشيرازي: "إذا كان ما يرويه قد ورد بمضمونه الروايات والنصوص التاريخية، أو كان من قبيل لسان الحال الذي يوحيه الحال، فلا إشكال فيه"[٢٨].

يقول السيد المدرسي في سياق الضوابط: "التصوير قسمان (أي لسان الحال):

القسم الأول: هو تصوير الحقيقة بإضافة بعض العناصر الفنية عليها، وتوضيحها دون إضافة شيء آخر، وهذا يجوز.

القسم الثاني: إضافة حقائق إضافية أو أقوال أو أفعال أو ما أشبه، وإضافتها إلى التاريخ، وهذا يجوز في حالة ويحرم في حالة، يجوز في حالة فهم المستمع أن هذا مجرّد خيال وقصّة، وأشبه ما يكون برواية تاريخية، حتى لا يختلط وتصوّر بحيث كأنما الإمام الحسين (عليه السلام) – مثلاً – قال هذا الكلام، ثم يتحوّل شيئاً فشيئاً إلى مفهوم في ذهن المستمع، وهذا المفهوم يتحوّل إلى قاعدة فكرية، وهذا قد يكون فيها نسبة شيء إلى المعصوم أو إلى الدين مما يعتبر افتراء.

أما في حالة وضوح الكلام، والمستمع يعرف أن الخطيب لم يكن هناك حتى يرى الإمام الحسين (ع)، إنما يصوره حتى يوضح المسألة أكثر فأكثر، فهذا يبدو لي جائزاً"[٢٩].

ملخص الضوابط:

مما تقدّم من فتاوى الفقهاء يمكن تلخيص مجمل الضوابط لصياغة لسان حال منضبط، في التالي:

---

[٢٨] - جامع الأحكام، الشيخ علي الناصر.

[٢٩] - لقاء ثقافي في ريف دمشق (مع المرجع المدرسي)، محمود الموسوي، ص٦٣.

أ – الانطلاق من موقف تاريخي مذكور في كتب التاريخ، (بحسب المباني في المنهج التاريخي).

ب- أن يكون لسان الحال مناسباً لمقام المعصوم، ولا يسيء إلى سمو مقامه الشريف.

ج- بأن يصرّح أو يشير إلى أن ما يذكره من لسان الحال، أو يكون في مقام يفهم منه ذلك أو ما تعارف عليه أهل الفهم ذلك[٣٠].

د- المضامين التي يحتوي عليها لسان الحال، ينبغي أن تكون متوافقة مع مقاصد الدين وأحكام الشريعة.

هـ– طرح أفكار نابعة من الدين ومتوافقة مع النهضة الحسينية، ومناسبة لشأنيتها ومقامها.

و - أن لا يكون قصد الخطيب والشاعر مما يقوله بأنه مما ورد حقيقة، بل يقصد به لسان الحال.

ز – اتباع الأساليب المعهودة في اللغة والأدب وعند أهل الاختصاص.

[٣٠] - بحسب اختلاف الآراء تشددا وتوسعاً في الإشتراط.